لا عداء في العلم

هكسلي وميفار

اذا ذُكر علماء البيولوجيا (علم الحياة) ومشاهير الكتّاب عُدَّ الاستاذ هكسلي والاستاذ ميفار من اكبر زعمائهم. والرجلان انكليزيان اولهما من اللاادريين بل هو الواضع لكلمة اغنوستك التي ترجمناها باللاادرية فهو كابر بكل العقائد الدينيَّة. والثاني من الكاثوليك الشديدي التمسك بعقائد الكنيسة البابوية. وكانت نار الجدال محتدمة بينهما زماناً طويلاً الى ان توفي الاستاذ هكسلي فرثاهُ رجال العلم ووصفوا مآثرهُ وفضائلهُ وقد جاراهم المقتطف على ذلك في حينهِ. وقام الآن الاستاذ ميفار وكتب مقالة وجيزة عنهُ نشرها في جزء حديث من مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية فرأينا ان نلخصها عنها لما فيها من الادلة على ان رجال العلم لا يضمرون العداوة كما انهم لا يراعون في الحق صديقاً. قال ما ملخصهُ

مضى سنتان منذ فقدنا رجلاً من اعظم رجال العصر واشهرهم وهو المبكي المأسوف عليهِ الاستاذ هكسلي، ولقد زاد الآن شعورنا بعظم الخسارة التي خسرناها بفقدهِ لانهُ مضت الايام ولم نجد من يقوم مقامهُ وما من احد من اهل هذا العصر يرجو ان يرى مثل هكسلي في حياتهِ ولذلك لاق بمجلة القرن التاسع عشر ان تنشر بعض اوصاف الرجل الذي كان لهُ الشأن الاعظم في القرن التاسع عشر ولاق ايضاً ان لا يقتصر ما يذكر عنهُ على ما يكتبهُ انصارهُ الموافقون لهُ بل ان يتناول ما يكتبهُ خصومهُ المخالفون لهُ ايضاً الذين شدَّد عليهم الوطأة وعاملهم بالجفاء واختبروا حلاوة صداقتهِ ومرارة عداوتهِ

ولقد كان الاستاذ هكسلي صديقاً صدوقاً ثابتاً كريماً. كان جديراً بالإكرام لسمو عقلهِ واجدر بهِ لكرم اخلاقهِ وحبهِ لاصدقائهِ. وكان ايضاً مخلصاً في بغض خصومهِ كما كان مخلصاً في حب انصارهِ ولكن العداء والتأني قلما يجتمعان فاذا احتدمت نار الجدال عدل الانسان في احكامهِ واستبدل بوادر الغضب بالعفو والسماح

واني انتهز هذه الفرصة لبثّ ما اشعر بهِ مما انا مدين فيهِ لهُ ولوصفهِ كما ظهر لي في احوال مختلفة. ولولا علاقة ما سأذكرهُ من اموري بهِ وبايضاح بعض اوصافهِ لكنت اتجنَّب نشرهُ حتماً. وليس من غرضي ان انفي ما كان من الاختلاف بيننا في الآراء ولا ان ابين ان الايام واتساع المعارف ازالتهُ كلاَّ بل ان ذلك الاختلاف باقٍ على حالهِ وبقاؤهُ يساعد كثيرين على

يخرجهم يقول للرئيس اني اوجس ان بيننا غرباء فيأمر الرئيس حينئذٍ باخراج الغرباء فعلاً. وقد حدث ذلك سنة ١٨٧٥ وكان مدار البحث في المجلس على الطيل وتأصيلها وكان ولي العهد (البرنس اوف ويلس) حاضراً بين الزوار فقام احد النواب الارلنديين وقال اني اوجس ان بيننا غرباء. فاخرج الغرباء كلهم وولي العهد في جملتهم. لكن رئيس المجلس (وكان دزرائيلي) طلب ان يعاد الغرباء الى مجالسهم وصادقت الاكثرية على طلبه فعاد الذين ارادوا العود منهم وفي جملتهم مكاتبو الجرائد. واقرّ المجلس حينئذٍ على ان اخراج الغرباء لا يكون بعد ذلك الحين الاّ باستدعاء احد النواب ومصادقة الاكثرية على استدعائه الاّ رئيس المجلس فانهُ يجوز لهُ ان يخرج الغرباء متى شاء. ولم يخرج الغرباء بعد ذلك الاّ مرّة واحدة سنة ١٨٧٩ اُخرجوا باستدعاء رسمي وتصديق الاكثرية عليهِ وكان موضوع البحث مقتل اللورد ليزم في ارلندا فبقي المجلس خالياً من الغرباء نحو خمس ساعات

ثم ان كل من يقف ليتكلم في المجلس يجب ان يوجه خطابهُ الى الرئيس ولا يجوز حينئذٍ لاحد ان يمرّ بين الرئيس والجهة التي فيها العضو المتكلم وان مرّ وجبَ على الرئيس باستدعائهِ الى النظام. فاذا اراد احد ان يدخل او يخرج ولم يكن لهُ سكة الاّ من بين الرئيس والمتكلم اضطرّ ان يصمّ اذنيهِ ويحني راسهُ ويمشي فيسمع كلمة التوبيخ ولا يعبأ بها اذا لم يهزأ بهِ الحضور

وعندهم ما يسمى "باستدعاء المجلس" وهو ان ينادي كل واحد من النواب باسمهِ ويجب ان يجيب النداء في مدة لا تزيد على عشرة ايام وان لم يجب أُتي بهِ تحت الحفظ. ولا يكون ذلك الاّ وقت البحث في المهام الكبيرة التي تهمّ السلطنة كلها. وقد استدعي المجلس آخر مرة سنة ١٨٧٦ لاجل تنقيح لائحة المعاشات فلبى الدعاء ٤١٤ نائباً. ثم استدعي مرة ثانية سنة ١٨٨٢ وكان قصد المستدعي ان يُخرج عن النواب بارنل وديلون واوكلي وكانوا محبوسين في ارلندا فاراد ان يخرجوا من السجن بمجرّد استدعاء المجلس. لكن اكثريّة الاعضاء رفضت استدعاءهُ فلم يلبّ طلبهُ

واذا انتُخب احد لمجلس النواب وجب ان يبقى في هذا المنصب دائماً الى ان يحلّ المجلس او يموت ذلك النائب او يفلس او يجن او يطرد او يوظّف وظيفة ملكية. ولا يحق لهُ ان يستعفي ولكنهُ اذا اراد الانفصال عن المجلس لم يعذّر عليهِ ذلك فانهُ يوظف في بعض الوظائف الملكيّة التي تخرج صاحبها من مجلس النواب واذا قبل هذه الوظيفة اليوم يمكنهُ ان يستعفي منها غداً. فتعفي لغيرور وهلمّ جرّاً. ويمكن ان تعطى لاثنين في يوم واحد احدهما بعد الآخر فتكفي لاعفاء الاعضاء كلهم في اشهر قليلة. وسبحان من تفرد بالكمال

وان تهمهم له كانت احياناً كثيرة من اخف ما يكون

نعم انهُ كان يكرهُ الاجحاف ويستنجح ارياءه ولذلك ولما لتيهُ من قلة انصاف خصومه في اوائل عمره ارتاب في اخلاص الذين يناقضونهُ في ما حسبهُ من الحقائق الواضحة كالشمس في الظهيرة

وقد رأيتهُ اول مرة في اوائل سنة ١٨٥٨ في دار العلم الملكية حيث كان يخطب في مبادىء علم البيولوجيا . وغنيٌّ عن البيان ان خطبهُ واساليبهُ في التدريس وقعا في نفسي موقعاً عظيماً . ولم يكن الذين يحسنونهُ على درجة واحدة من الاستعداد لفهم خطبهِ لكنهُ تمكن من بسط المعاني لهم كلهم مع ما في ذلك من العناء . ثم تعرفت بهِ في السنة التالية في دار التحف البريطانية وكان في الرابعة والثلاثين من عمره طويل القامة مجدول العضل اسود العينين براقهما اسود الشعر مربد الطلعة بشوش الوجه . ودار الحديث على احافير بعض الزحافات فادهشني ببداهتهِ وذكائهِ واحاطتهِ بجوهر الموضوع . ومما اعجبني منهُ حينئذٍ امران الاول سرعة تنبُّهِ لملامحهِ فانها كانت تتغير بتغير الموضوع كأن وجههُ مرآة عقلهِ . والثاني صراحة اقوالهِ واحكامهِ . وقد ادهشني هذا الامر الاخير بنوع خاص لانني كنت في ذلك المكان منذ ايام قليلة ولقيت فيهِ الاستاذ اون (الطبيعي الشهير) وكان صديقاً لي منذ عهد طويل وسألتهُ عن رأيهِ في طائر الدودو اذ زعم البعض حينئذٍ انهُ من الحمام فتبسم وانغض رأسهُ وقال " هو دودو " ولم يزد

ثم كثر اجتماعي بالاستاذ هكسلي لاننا سكنا في حي واحد وكنا نتذاكر في مواضيع كثيرة فاعجب لي بذكائهِ وصراحة اقوالهِ وغزارة معارفهِ وقوة ذاكرتهِ

واشتدَّ الجدال بينهُ وبين اون في كثير من المسائل الطبيعية فوقفتُ موقفاً حرجاً بينهما لانني كنت صديقاً لهما كليهما وكنت احسبهما مصيبين ومخطئين كأنهما ينظران جانبين مختلفين من ترس واحد على ما في القصة المشهورة ولكن لما توفي اون وكتب حفيدهُ ترجمتهُ سنة ١٨٩٤ كتب هكسلي فصلاً فيها وصف فيهِ عملهُ احسن وصف واعترف لهُ بالفضل وباستحقاقهِ للمنزلة الرفيعة التي أُنزل فيها بين علماء الارض حتى لُقِّب بكيفيه الانكليز

ولما اطَّلعتُ على مذاهب هكسلي في مسائل التشريح والاساليب التي يوضحها بها طلبت الانتظام بين تلامذتهِ ودخلت غرفتهُ لاعرض عليهِ حلي وكان يشرح سمكاً من اسماك البحر اظهاراً لاعصابهِ فرحَّب بي ولم يقبل ان اكون تلميذاً لهُ بل ان اساعدهُ في خطبهِ كصديق فحضرت خطبهُ بعد ذلك مدة سنتين . وقد سمعت كثيرين يخطبون ولكن لم اسمع احداً يخطب مثل

الاستاذ هكسلي فانهُ كان فصيح العبارة واضح البيان يتنقى الالفاظ انتقاء تأتي على قدر المعاني ويلبس الكلام بالنكت الادبية فيشوق السامعين ويروقهم ويتبع الالفاظ بملائم لقرأها العين فتراها منطبقة على ما تسمعهُ الاذن

ولا انسى طريقتهُ في الخطابة فانهُ كان يدخل حلقة التدريس مسرعاً ويحيل طرفهُ في الحضور ويشرع في مراجعة الامور الجوهرية في الدرس السابق ثم يستطرد الى درس ذلك اليوم فيفيض فيهِ ودر يوضح ما يقولهُ بالصور والرسوم ولهُ مهارة في الرسم فتجري يدهُ مع لسانهِ ويمثل ما يريدهُ لاذهان السامعين باللسان والقلم فترتسم لهُ في عقولهم صورة واضحة راسخة حتى اذا جاء على نتيجة الخطبة وقف ينتظر مسائل السائلين فيجيب عنها وكما رأى طالباً ادرك حقيقة علميَّة وبنى عليها ابرقت اسرتهُ ولم يخفِ ما شملهُ من السرور

وقد كان البعض يخشون من ارسال اولادهم اليهِ لئلاَّ يزعزع معتقداتهم الدينية بتعاليمهِ اما انا فقد حضرت خطبهُ مدة طويلة ولم أرهُ يشير الى العقائد الدينية مطلقاً. ولاقتناعي التام بانهُ لا يمرّس بالاديان ولا يحمل تلامذتهُ على الشك فيها بعثت اليهِ بعد ذلك بابني ليعلمهُ. وقد تعلمت منهُ في سنتين اكثر مما تعلمت قبل ذلك في عشر سنوات

وبمعاضدتهِ ومعاضدة الاستاذ اون عُيِّنت مدرساً لعلم الحيوان وتشريح المقابلة في المدرسة الطبية بمستشفى القديسة مريم وبقيت مواظباً على حضور خطبهِ فزادت الالفة بيننا وكان يميل اليَّ ويفضل رفقتي على رفقة غيري وكنا نتناظر في كثير من المواضيع العلمية والفلسفية والدينية

وسنة ١٨٦٨ خابرني ريب في مسألة الانتخاب الطبيعي وساعدني على ذلك الاب روبرتس وهو من العلماء المدققين وكان صديقاً لي ولهكسلي . وكنت قد سمعت كثيراً مما يقال في تأييد المذهب الداروني من هكسلي وولس وهيكل ومن دارون نفسهِ ولكن الريب كان يزيد في نفسي يوماً فيوماً ولاسيما من حيث علاقة هذا المذهب بالعقائد الدينية واخيراً كاشفت هكسلي بما في ضميري فاندهش من ذلك لكنهُ لم يحن عنَّا عوَّدني من اللطف وكرم الاخلاق . وفي اليوم التالي كنا نتذاكر في هذا الموضوع فادَّت بنا المذاكرة الى الجدال لكن علاقتنا العائلية بقيت على حالها وكنت ادعوهُ الى الغداء مرةً ويدعوني اخرى وفي ذات يوم دار الحديث على اطلاق الحرية لكل احد يعتقد ما يشاء والتفت اليهِ مترفقاً منهُ ان يؤيد كلامي فقال لا تنتظر مني تأييد هذا الرأي فقلت لهُ وكيف ذلك قال ان الضلال يجب ان يزال ولو بالقوة فقلت لهُ انك ادهشتني بهذا القول فهل تبرر الذين كانوا يضطهدون غيرهم لضلال ينسبونهُ اليهم فقال انهم كانوا مصيبين في النتيجة ولو اخطأوا في الواسطة فقلت ان حرق

الانسان حيًّا لاجل مذهبهِ واسطة قبيحة فقال مازحًا نعم ولاسيما لان اللحم المحروق كريه الرائحة . فضحكنا واغفلنا الموضوع

وفي الخريف التالي اجتمعنا في منشستر وحضرنا جمعية المناظرات الفلسفية ثم انتقدني في جريدة المعاصر ورددت عليهِ واتَّسع الخلاف بيننا ولستُ اتعجب من ذلك لانهُ كان صديقًا حميمًا لداروين وكان داروين ودودًا محبوبًا من كل اصدقائهِ وكان يحبُّ هكسلي ويعجب بهِ وهو اكبر منهُ سنًّا و ضعف جسمًا ولذلك رأيت انهُ يصعب على هكسلي ان يبقى على صداقتي وانا مجاهر بمخاصمة صديقهِ وقد قال لي مرةً انهُ يصعب على المرء ان يهرب مع الارانب ويصيد مع الكلاب . وكتب اليَّ بعد سنين كثيرة يقول " ان تعلق اصدقاء داروين بهِ جعل الذين يصوّبون ارآءهُ منهم يجتمعون المشاق في نصرتهِ ويخاصمون خصومهُ اكثر مما كانوا يفعلون لولا صداقتهم لهُ "

وبقي في مصر سنة ١٨٧١ وخرجت انا من لندن من سنة ١٨٧١ الى سنة ١٨٧٤ ولكنني كنت اجتمع بهِ احيانًا ولاسيما حينما يخطب للعمال في المواضيع العلمية فانهُ كان مغرمًا بذلك وذات يوم اتمَّ خطبتهُ وركب مركبة وعاد بها إلى بيتهِ ثم اخرج الاجرة ليدفعها لسائق المركبة فقال لهُ السائق "كلاَّ ايها الاستاذ فانك قد افدتني بخطبتك فوائد كثيرة تغنيني عن اخذ الاجرة منك وانا الفخر يا مولاي بانني اركبتك مركبتي "

وفي اواخر سنة ١٨٧٤ عزمتُ على ارسال ابني إلى المدرسة الَّتي يدرّس فيها وبعثتُ بهِ اليهِ فكتب اليَّ ذلك اليوم يقول " عزيزي ميشار الذئاب لا تفترس الذئاب فلا اقدر ان آخذ اجرة منك على تعليم ابنك "

وفي ذلك الحين انتظمت في سلك جمعيةٍ ما وراء الطبيعةٍ واشتدَّ الحجاج بيني وبينهُ فوقع ما كنت اخشاهُ بسبب عبارة كتبتها في جريدة المعاصر حسبها اهانة شخصيةً لهُ .ومضت عشر سنوات بعد ذلك ونحن متقاطعان وهو لا يظهر لي شيئًا من دلائل الصداقة القديمة وانا آسف على ذلك اشد الاسف لانني كنت دائمًا مقيمًا على حبهِ والاعجاب بهِ وكنت اود ان تعود الصداقة بيننا الى مجراها الاول واخيرًا بلغني انهُ ذكرني مرةً ذكرًا حسنًا فتجرأت على زيارتهِ فرحَّب بي وعاملني بلطفهِ المعتاد وراجعنا ما مضى وكلٌّ منا نادم عليهِ واخبرني انهُ عازم على الانقطاع عن الاشغال الاَّ ما فيهِ لذة خاصة

والتقينا بعد ذلك مرارًا وكنا نتكاتب ايضًا ويسرني انني اثبتُّ لهُ بقائي على حبهِ وولائهِ قبل وفاتهِ بزمان طويل وان ما حدث من الجفاء الطويل بيننا لم يحط من منزلتهِ في نفسي